المقدمة

obeikandl.com

obeikandl.com

مـــقـــدمـــــة

منذ أن ظهر نبي الإسلام محمد بن عبد الله (ﷺ) في مكة وبرزت شخصيته على ساحة التاريخ الإنساني في مطلع القرن السابع الميلادي، وما زال الجدل محتدما حول هذه الشخصية، ويكاد يكون الغلو هو السمة الرئيسة في معالجة هذه الشخصية سلبا أو إيجابا.

وقد أدى التباين الشديد في النظرة إلى نبي الإسلام محمد (ﷺ) سلبا وإيجابا إلى التصادم بين وجهات النظر المختلفة فيما يتعلق بقضية "مصادر الإسلام" التي ترتبط ارتباطا جوهريا بقضية "الوحي المحمدي"[١].

فمن وجهة النظر الإسلامية، يعتقد المؤمنون برسالة محمد (ﷺ) أنه ليس للإسلام إلا مصدر وحيد أوحد، يتمثل في "الوحي الإلهي".

والقرآن عند المسلمين هو "الكتاب المقدس الذي يمثل كلام الله المنزل على نبيه محمد (ﷺ)، المعجز بلفظه، المتعبد بتلاوته، المنقول بالتواتر، المكتوب في المصاحف، من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس"[٢].

---

١ يستخدم الباحث في هذه الدراسة بعض التعبيرات مثل: "الوحي المحمدي" للإشارة إلى الوحي الذي يؤمن المسلمون بأنه نزل على محمد (ﷺ)، ومثل: "البعثة المحمدية" للإشارة إلى مرحلة بداية نزول الوحي على محمد (ﷺ). وليس في ذلك شبهة تأثر بالمصطلحات الاستشراقية.

ويحتاط الباحث من تسمية دين الإسلام بغير اسمه الذي ورد في القرآن: "الإسلام" (آل عمران ١٩ ، ٨٥). يقول "محمود حمدى زقزوق": إن أغلب المستشرقين مولعون بوصف الإسلام بأنه الدين المحمدي أو المذهب المحمدي أو المحمدية (Mohammedanism) نسبة إلى محمد، كما تنسب المسيحية إلى المسيح. غير أن هناك سببا آخر لاستخدام هذا الوصف لدى الكثيرين منهم، وهو إعطاء الانطباع بأن الإسلام دين بشري، من صنع محمد، وليس من عند الله. أما نسبة المسيحية إلى المسيح فلا تعطي لديهم هذا الانطباع؛ لاعتقادهم بألوهية المسيح. انظر : زقزوق (محمود حمدي) ، الإسلام في تصورات الغرب ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ١٩٨٧م ، ص ٢١.

٢ أبو شهبة (محمد محمد) ، المدخل لدراسة القرآن الكريم ، دار اللواء للنشر والتوزيع ، الرياض ، ط ثالثة ١٩٨٧م ، ص ٢٠.

openkandil.com

أما وجهة النظر الأخرى التي تمثل غير المؤمنين برسالة محمد (ﷺ) والتي يتبناها الاستشراق بصفة عامة، فترى أن الإسلام نهل من روافد متعددة، وأن محمدا (ﷺ) اقتبس تشريعاته وقصصه من المصادر اليهودية والمسيحية وغيرها؛ ولذا يجتهد المستشرقون، على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم وتوجهاتهم الفكرية، في البحث عن تلك المصادر التي نهل منها نبي الإسلام (ﷺ)، والروافد التي أمدته بمعارفه، والوسائل التي وصلت إليه تلك المعارف من خلالها، حسب اعتقادهم.

ومن بين هؤلاء المستشرقين يهود ومسيحيون متدينون، وبينهم أيضا علمانيون وملحدون، ويبدو للوهلة الأولى أن الموقف من إنكار "الوحي المحمدي" من قِبَل طائفة من المستشرقين اليهود والمسيحيين المؤمنين بظاهرة الوحي هو في حقيقة الأمر موقف متناقض؛ إذ إن الإيمان بحدوث ظاهرة الوحي عند أنبياء بني إسرائيل تجعل من غير المقبول رفض فكرة "الوحي المحمدي"، على الأقل من الناحية النظرية، لكن المسألة بالنسبة لهؤلاء المستشرقين لا تتعلق برفض فكرة الوحي ذاتها، وإنما تتعلق برفض الإيمان بفكرة "الوحي المحمدي" على وجه الخصوص، وهذا الرفض لا يرتبط بالعلل والأسباب بقدر ما يرتبط بالمعتقدات والقناعات الشخصية، تلك المعتقدات والقناعات التي غذتها تلك الصورة المشوهة والمغلوطة، التي رسخت في الوعي الغربي عن شخصية نبي الإسلام (ﷺ)، على مدار قرون عديدة.

وقد اتسمت معظم الدراسات الاستشراقية التي تدور حول الإسلام ونبيه (ﷺ) بنزعة عدائية، هدفها الطعن والتشويه، وأدت الأكاذيب الملفقة حول الإسلام ونبيه (ﷺ) إلى تكوين صورة نمطية لا علاقة لها بالواقع، فلم يكن هدف معظم هذه الدراسات رسم صورة مجردة وموضوعية عن الإسلام ونبيه

(ﷺ)، بل كان الهدف هو محاولة رسم صورة للإسلام في أذهان المسلمين بأنه ليس إلا صورة مشوهة وضالة لليهودية والمسيحية[1].

وهذه الدراسة تبحث قضية "الروافد الثقافية لنبي الإسلام"، من وجهة نظر الاستشراق العبري.

وتجدر الإشارة إلى أن بحث هذه القضية يفترض في الأساس أن تقتصر مادة الدراسة على نصوص الحديث النبوي الشريف، الذي يمثل أقوال النبي محمد (ﷺ) من وجهة النظر الإسلامية، لكن الاستشراق العبري ينطلق من الاعتقاد بأن محمدا (ﷺ) هو مؤلف القرآن، وتركز الكتابات العبرية بشكل أساسي على المادة القرآنية، ولما كانت الدراسة تبحث قضية الروافد الثقافية لنبي الإسلام (ﷺ) في ضوء الكتابات العبرية، كان لزاما على الباحث مناقشة هذه القضية من وجهة نظر الاستشراق العبري، بصرف النظر عن وجهة النظر الإسلامية في هذا الشأن.

* * *

* عنوان الدراسة:

حملت الدراسة العنوان التالي: " الروافد الثقافية لنبي الإسلام في ضوء الكتابات العبرية للمستشرقين اليهود - دراسة تحليلية نقدية "

والعنوان ليس تقريريا، وإنما يشير إلى بحث قضية الروافد الثقافية في ضوء ما كتبه المستشرقون اليهود باللغة العبرية.

ولا يعني ذلك مبدئيا إقرار أو نفي وجود مثل هذه الروافد، فمهمة الدراسة في المقام الأول بحث هذه القضية المطروحة بحثا علميا محايدا؛ بغية الوصول إلى نتائج علمية معتبرة.

---

[1] الهواري (محمد) ، القرآن الكريم في دوائر المعارف اليهودية ، بحث منشور في مجلة جامعة الملك سعود ، الرياض ، مج ١٩ ، ٢٠٠٧م ، ص ٢٩١.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض المستشرقين كثيرا ما يستعملون هذا التعبير "نبي الإسلام"، ولا يعني ذلك لديهم الإقرار بنبوته ورسالته (ﷺ).

ويفهم من عبارة "الروافد الثقافية لنبي الإسلام" البحث في كل ما يتعلق بالتكوين الثقافي له (ﷺ)، والمصادر الثقافية التي كونت مفاهيمه تجاه البيئة المحيطة والكون والحياة بصفة عامة.

وبعيدا عن الغلو في المعتقدات الدينية، الذي سوف تتم الإشارة إليه في الفصل الأول من هذه الدراسة، فإنه ينبغي أن يوضع في الاعتبار أن محمدا (ﷺ) – بوصفه بشرا – قد ولد في بيئة عربية صحراوية، وأنه اكتسب نوعا ما من الثقافة اللغوية والتاريخية والجغرافية من بيئته: تعلم الثقافة اللغوية العربية السائدة في عصره، وعرف العادات والتقاليد، وعرف المناطق والبلاد المحيطة، وعرف شيئا ما – قليلا كان أو كثيرا – عن أهلها، واكتسب المعرفة ببعض الحرف كحرفة الرعي وحرفة التجارة، وتعلم فنون القتال وغيرها من الأمور الحياتية الأخرى.

أما عبارة "في ضوء الكتابات العبرية للمستشرقين اليهود" فهي مقيدة للإطلاق في العبارة السابقة، ومحددة للإطار الفكري الذي تدور في فلكه هذه الدراسة، ذلك الإطار المتمثل في الكتابات المتنوعة التي كتبها المستشرقون اليهود بالعبرية حول هذا الموضوع؛ بغية إيصال رسالة معينة عن الإسلام ونبيه (ﷺ) للقارئين بالعبرية.

وقد ركزت معظم هذه الكتابات على روافد الثقافة الدينية على وجه الخصوص، والثقافة اللغوية في بعض الأحيان؛ لتوصيل فكرة مفادها أن القرآن الكريم من تأليف محمد (ﷺ)، وأنه ليس إلا صدى لثقافة محمد (ﷺ) الدينية واللغوية، وأن اليهودية مثلت الرافد الأكبر الذي نهل منه محمد (ﷺ) ثقافته الدينية، حسب زعمهم.

* * *

* محتويات الدراسة:

جاءت هذه الدراسة مشتملة على مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة، فضلا عن قائمة المصادر والمراجع.

وتتناول المقدمة التعريف بالدراسة وأقسامها، وأهميتها، وأهدافها، والمنهج المتبع فيها، مع الإشارة إلى أهم الصعوبات التي واجهت الباحث في هذه الدراسة.

ويتناول التمهيد موضوع منهجية المستشرقين في مجال الدراسات الإسلامية، في إشارة إلى أهم أوجه القصور المنهجي التي اعترت هذه الدراسات الاستشراقية.

فقد تبين للباحث من خلال استقراء مادة الدراسة من الكتابات العبرية المتنوعة التي يعتمد عليها البحث أن هؤلاء المستشرقين يتجاوزون المنهجية العلمية في مجال الدراسات الإسلامية؛ رغبة في الوصول إلى بعض النتائج المقررة سلفا لديهم، والتي تستند إلى معتقداتهم وقناعاتهم الشخصية أكثر من استنادها إلى الأدلة العلمية والتاريخية.

وقد تنوعت تلك الأخطاء المنهجية ما بين استخدام مناهج علمية غير مناسبة في مجال الدراسات الإسلامية، أو استخدام آليات تطبيقية معينة؛ بغية الوصول إلى نتائج محددة سلفا، أو ارتكاب بعض الأخطاء المنهجية التي تتصادم مع خصائص البحث العلمي السليم.

وقد رأى الباحث أن هذا التمهيد من شأنه أن يساعد كثيرا في إثبات عدم أهمية العديد من الآراء والأحكام غير العلمية التي ترد في ثنايا الاستشهادات المأخوذة من هذه الكتابات، ما يغني عن التوسع في الردود التفصيلية على العديد من الجزئيات التي من شأنها أن تصرف الباحث عن الموضوع الرئيس للدراسة.

obeikandi.com

ثم يأتي الفصل الأول بعنوان:

دعوى الروافد الثقافية لنبي الإسلام (ﷺ) - الجذور والتطور

يعد هذا الفصل بمثابة تأصيل للقضية موضوع الدراسة، وتتبع لتاريخ دعوى اقتباس محمد (ﷺ) من كتب اليهود والمسيحيين، منذ ظهور هذه الدعوى في مكة، وتطورها على أيدي الجدليين المسيحيين المشارقة، ثم انتقالها إلى أوربا لتترعرع في ظل العداء المسيحي للإسلام في فترة الحروب الصليبية وما بعدها، إلى أن جاء الاستشراق فألبس هذه الجداليات ثوب العلم، وطورها في مرحلة لاحقة إلى دراسات أكاديمية.

وفي هذا الفصل تتناول الدراسة الغلو في النظرة إلى مصادر المعرفة عند محمد (ﷺ)، فمن جانب نفى بعض المسلمين الاكتساب المعرفي الطبيعي عنه (ﷺ)، ورأوا كل ما يصدر عنه (ﷺ) وحيا لا اكتساب فيه، وعلى الجانب الآخر رأى غير المسلمين كل العناصر التي شكلت ثقافته ومعارفه (ﷺ) اكتسابا لا وحي فيها، ومن هنا بدأ بعضهم في البحث عن الروافد التي أمدته (ﷺ) بثقافته الدينية والتاريخية واللغوية، من وجهة نظرهم، إلى أن أصبحت قضية "الروافد الثقافية لنبي الإسلام" من القضايا المحورية في الدراسات الاستشراقية.

ثم يأتي الفصل الثاني بعنوان:

رؤية الاستشراق العبري لنبوة محمد (ﷺ)

في هذا الفصل تتناول الدراسة رؤية الاستشراق العبري لنبوة محمد (ﷺ) وشخصيته ونشأته منذ ميلاده وحتى بعثته، وتفسيرات المستشرقين اليهود لظاهرة الوحي المحمدي على أنه حالة مرضية صرعية، أو أنه نوع من الخلل في الصحة النفسية لمحمد (ﷺ).

وتركز الدراسة في هذا الفصل على افتراض بعض المستشرقين حدوث تأثيرات يهودية ومسيحية على المحيط الثقافي والمعرفي لمحمد (ﷺ)،

وتصوراتهم حول كيفية حدوث هذا التأثير المفترض؛ وذلك بهدف التشكيك في الرسالة المحمدية، وإثبات عدم نبوة محمد (ﷺ)، وبالتالي يصبح من المنطقي لديهم البحث عن الروافد التي استقى منها محمد (ﷺ) معارفه وثقافته الدينية، من وجهة نظرهم.

ثم يأتي الفصل الثالث بعنوان:

رؤية الاستشراق العبري لروافد الثقافة الدينية المحمدية

ترصد الدراسة في هذا الفصل آراء المستشرقين اليهود في الكتابات العبرية بشأن الروافد المختلفة التي تزعم هذه الكتابات أن محمدا (ﷺ) استقى منها معارفه وثقافته الدينية. وسوف يتضح من خلال الدراسة أن هذه الآراء تفتقر إلى المصداقية والموضوعية، فضلا عن افتقارها إلى الأصالة، فهي مجرد تكرار لآراء المستشرقين الغربيين، بحيث يكاد الاستشراق العبري يكون نسخة مكررة من الاستشراق الغربي، إلى الحد الذي تتكرر فيه الأمثلة ذاتها المنقولة من الدراسات الاستشراقية الغربية، دون زيادة أو نقصان.

ويلي ذلك الخاتمة التي تشتمل على تلخيص لأهم الأفكار الواردة في الدراسة، وأهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة.

* * *

* أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في أهمية الموضوع الذي تبحثه؛ إذ إن قيام المستشرقين اليهود بالبحث في قضية الروافد الثقافية لنبي الإسلام، ومحاولة إثبات اقتباس بعض النصوص الإسلامية من المصادر اليهودية أو غيرها هو أمر يمس جوهر الدين الإسلامي والعقيدة الإسلامية، ويقدح في أصالته ومصدره الإلهي.

* * *

obeikandl.com

* أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى عدة أمور ، منها :

١ - وضع الاستشراق العبري في ميزان النقد العلمي الموضوعي؛ لاكتشاف مدى اقترابه أو ابتعاده عن المعايير العلمية الموضوعية، وذلك من خلال بحث منهجية المستشرقين في الكتابات العبرية.

٢ - التأصيل لدعوى اقتباس الإسلام من الكتابات اليهودية والمسيحية، من خلال تتبع أصول هذه الدعوى، ومراحل تطورها في الكتابات الجدلية في العصر الوسيط وفي الكتابات الاستشراقية في مرحلة لاحقة، وذلك في الفصل الأول.

٣ - تفنيد مزاعم الاستشراق العبري الساعية إلى نفي صحة الرسالة المحمدية، من خلال مناقشة آراء المستشرقين اليهود في الكتابات العبرية، وذلك في الفصل الثاني.

٤ - تفنيد مزاعم الاستشراق العبري الساعية إلى إثبات وجود روافد للإسلام من المصادر اليهودية المختلفة ومن غيرها، وذلك من خلال مناقشة آراء المستشرقين اليهود في الكتابات العبرية، وذلك في الفصل الثالث.

* * *

* الصعوبات التي واجهت الدراسة:

واجهت الباحث في هذه الدراسة بعض الصعوبات، من أهمها:

١ - ندرة المراجع العبرية التي تتناول الموضوع بشكل مباشر، لذا اضطر الباحث إلى تجميع مادة البحث من العديد من الدراسات الاستشراقية العبرية التي تحدثت عن الإسلام ونبيه (ﷺ) بصورة عامة.

٢ - جاءت أقوال معظم المستشرقين في الدراسات الاستشراقية العبرية في صورة أقوال مرسلة، وجاءت معظم الروايات التي اعتمدوا عليها مفتقرة إلى التوثيق من المصادر العربية الإسلامية. الأمر الذي كلف الباحث عناء في

البحث عن هذه الروايات في المصادر العربية الإسلامية المختلفة؛ للتأكد من سلامة هذه الروايات، وقد استغرق هذا الاستقصاء وقتا وجهدا من الباحث، وبعض هذه الروايات لم يجد له الباحث أصلا في المصادر العربية الإسلامية التي أتيحت له.

٣- اتساع نطاق الدعاوى الاستشراقية لتشمل العديد من المجالات، ما أدى إلى اضطرار الباحث للقراءة في المجالات العلمية المختلفة كعلوم القرآن وعلوم الحديث وأصول الفقه والسيرة والتاريخ؛ للتمكن من الإلمام بموضوع الدراسة من كافة جوانبه قدر الإمكان.

* * *

* منهج الدراسة:

تعتمد الدراسة على منهجين أساسيين:

١- المنهج التحليلي: حيث تقوم بتحليل النصوص الاستشراقية العبرية؛ للوقوف على الأهداف الكامنة وراء تلك النصوص، ومدى تأثر كاتب النص بقناعاته الشخصية والدينية أو بآراء من سبقه من المستشرقين.

٢- المنهج النقدي: حيث تقوم الدراسة بنقد النصوص الاستشراقية العبرية نقدا علميا موضوعيا، مع الرد العلمي على ما تثيره بعض هذه النصوص من شبهات وافتراءات حول الإسلام ونبيه محمد (ﷺ).

ويعتمد الباحث في نقده ومناقشته لهذه النصوص الاستشراقية وفي رده عليها على العديد من الأساليب، من أهمها :

١- بيان ضعف بعض هذه الدعاوى الاستشراقية وعدم قيمتها؛ بسبب خروجها عن المنهج العلمي وفساد آلياتها.

٢- استخدام الأدلة النقلية، وذلك من خلال عرض الروايات التاريخية التي تتناقض مع دعاوى المستشرقين.

obeikandl.com

٣- استخدام الأدلة العقلية، وذلك من خلال بيان فساد هذه الدعاوى؛ لافتقارها إلى المنطق العقلي السليم.

وقد يضطر الباحث أحيانا إلى عرض مجموعة من أقوال المستشرقين حول قضية ما، ثم يؤخر الرد عليها حتى نهاية العرض؛ لتشابه محتوى هذه الآراء واشتراكها في الفكرة ذاتها.

وقد يلجأ الباحث في الرد على أحد المستشرقين في قضية ما إلى الاستشهاد برأي غيره من المستشرقين الذين خالفوه الرأي في هذه القضية، ولا يلزم من ذلك أن يتبنى الباحث رأي المستشرق الآخر بصورة كاملة؛ إذ قد يلجأ بعض المستشرقين إلى رفض أحد الطروح من أحد المستشرقين في قضية من القضايا، ثم ينطلق من هذا الرفض إلى طرح آخر لا يقل خطورة عن طرح سابقه.

وليس الاستشهاد برأي أحد المستشرقين في الرد على غيره في قضية ما استجداء منه أو تفضيلا لرأيه على آراء غيره من الباحثين المسلمين، لكن الباحث قد يلجأ إلى ذلك؛ ليبين أن القضية ليست محل اتفاق وإجماع بين المستشرقين أنفسهم، ودفعا لشبهة التحيز عن الباحث المسلم، كما أنه يدخل في باب "وشهد شاهد من أهلها".

ويعد اختلاف النتائج بين المستشرقين وتعارضها وتناقضها دليلا واضحا على الخلل المنهجي لديهم؛ إذ من الثابت أن المناهج العلمية تؤدي بالباحثين إلى نتائج واحدة في المجالات العلمية التطبيقية، وإلى نتائج واحدة أو متقاربة في المجالات العلمية الإنسانية النظرية، ولو أن دراسات المستشرقين كانت مبنية على مناهج علمية موضوعية لما اختلفت ولما تعارضت النتائج إلا في القليل الذي يخضع لوجهات النظر في الاجتهاد والفهم[١].

---

[١] حمدان (نذير) ، الرسول (ﷺ) في كتابات المستشرقين ، مطبوعات رابطة العالم الإسلامي ، سلسلة دعوة الحق ، (د. ت.) ، ص ١٥٤.

* وقد لاحظ الباحث أن العديد من دراسات الباحثين المسلمين التي بحثت آراء المستشرقين عن الإسلام كانت دراسات دفاعية اتسمت بالنزعة الجدلية، والقليل منها هو الذي نحا تجاه الموضوعية العلمية، وإن لم يتخلص تماما من هذه النزعة الجدلية.

ويرى الباحث أن أية دراسة من هذا النوع لا يمكن لها أن تتخلص نهائيا من هذه النزعة الجدلية، وهي نزعة تفرضها طبيعة الموضوع المدروس، لكن فرقا كبيرا بين دراسة تستخدم قواعد المنطق والاستدلال وأخرى تتخطى حدود هذا المنطق إلى ما يمكن أن يكون جدلا دينيا فحسب.

وقد حاول الباحث في هذه الدراسة البعد عن هذه النزعة الجدلية ما أمكنه ذلك، والالتزام بالحجج المنطقية في مناقشة الموضوع ما وسعه ذلك.

واستدلال الباحث ببعض آيات القرآن الكريم في هذه الدراسة لا يأتي انطلاقا من اعتبار القرآن نصا دينيا ملزما للمستشرقين الذين لا يعترفون بقدسيته وألوهيته، وإنما يأتي هذا الاستدلال انطلاقا من قبول معظم المستشرقين لدلالة القرآن على بعض الأحداث التاريخية في العصر الجاهلي وصدر الإسلام.

"إن القرآن يعد حجة مخطوطة ذات وثوق تاريخي لا يقبل الجدل عن العصر الجاهلي"[1].

* لم يكثر الباحث من الاستطراد في الردود على بعض الشبهات التي أثارتها بعض الكتابات الاستشراقية العبرية، بل أحال في كثير من الأحيان إلى الدراسات السابقة التي أسهبت في الردود على بعضها، ووجه الباحث اهتمامه الأول إلى بيان الخلل المنهجي في هذه الكتابات.

* كل ما يرد في ثنايا الاستشهادات داخل مثل هذين القوسين [ ] ، فهو من أقوال الباحث لا المستشرق.

---

[1] بن نبي (مالك) ، الظاهرة القرآنية ، دار الفكر ، دمشق ، ط ٢٠٠٠م ، ص ٢٥٦.